citybooks
www.citybooks.eu

الكلب جون لينون

حسن بلاسم

كتب حسن بلاسم هذا النص بعد إقامة لمدة أسبوعين في مدينة ليوواردن الهولندية، كجزء من مشروع (مدينة كتب) في ليوواردن وبدعوة من :
the Flemish Dutch House deBuren

منذ أن وصلت قبل أسبوعين والمدينة مبللة، مثل ذهني الذي تمطر فيه الصور والأفكار على مدار الساعة: تتجمع المياه، تتجمد، ثم تبخرها شمس ذاكرتي! إنه يومي الأخير في مدينة ليوواردن. في كثير من الأحيان أشعر أن ذهني مجرد قدر يغلي، وليس لدي أي فكرة عن كيفية رفع هذا (الذهن) من فوق النار! أمشي وسط المدينة من دون وجهة محددة. مطر مع لسعة برد خفيفة. أشعل سيجارة وأتوقف عند بناية بيت الوزن وأتأملها. تبدو من أبرز معالم وسط المدينة وهي تجاور القنال. البناية فيها مطعم. التّراس مفتوح، لكن البرد يدفع الزبائن للاحتماء في بطن البناية. أجلس وحيدًا وسط التراس. تأتي نادلة شابة مبتسمة: هل تحتاج إلى غطاء، الجو بارد؟! أشكرها وأقول لها أنا من هلسنكي، لدينا هناك برد وثلوج كافية لخوض تمارين العتمة والبرد. تبتسم النادلة، تقول: آه.. لم أزر هلسنكي من قبل، لكنني ذهبت إلى ستوكهولم، وأحببت المدينة كثيرًا!

أشرب قهوتي، متأملًا المارة. أغلب مشاة الرصيف يرتدون اللون الأسود والازرق الغامق. وأغلبهم يرتدي جينز. أحاول أن أحصي الذين لا يرتدون الجينز. إنهم أقلية. وكأن الأغلبية هي قبيلة جينز والأقلية هي قبيلة قماشية. قبيلة تطرز الزهور والنباتات على الأقمشة وتغني عن الشمس والعتمة. عن الحياة والموت. لا خلاص من وسواس التأمل العشوائي! هكذا هو ذهني الذي يحاول الآن سحب طمأنينتي الهشة إلى الهلوسة.

جئت إلى ليوواردن عن طريق إقامة أدبية. الفكرة هي أن أكتب عن المدينة. في الحقيقة ليست لدي أي فكرة عن كيفية الكتابة عن مدينة من خلال التعرف عليها خلال أسبوعين فقط. أنا بطيءٌ جدًا، أكتب بخطوات سلحفاتية منذ أن بدأت هذه الهواية العجيبة في سن المراهقة. ولدت قبل ٤٤ سنة في العراق. يقولون إن جارتنا سحبتني من بين فخذي أمي أسفل نخلة في ظهيرة صيف جهنمية. أطلقت جارتنا هلهولة مدوّية في ظلّ النخلة، وجئت أنا طفلًا لتعمده بلاد النهرين. نهر الدم ونهر العذاب! أعيش وأعمل منذ أكثر من ١٠ سنوات في هلسنكي. لاجئ لم تتمكن ثلاجة فنلندا من تجميد ذهنه ليستريح. ربما ذاكرتي عبارة عن مخزن للجلود المحترقة. جلود بشر وحيوانات مسلوخة. جلود تتحول في نومي إلى معارض فنية مدهشة. فن مرعب، شيق ومثير. كوابيس إبداعية حقيقية تفوح منها عفونة الألم.أوكي، لنبدأ العمل الذي كلفت به، لم آت هنا للكتابة عن فن ذهن الجلود المحترقة، بل للكتابة عن ليوواردن.

بالنسبة للغريب تكون المدن صامتة وغامضة. لهذا عليّ أن أتحدث إلى ليوواردن لتتحدث إلي. التعرف على الأشياء هو أداة كلاسيكية لا بأس بها للبدء بالكتابة. ما الذي أريد أن أعرفه؟ عن ماذا سأكتب؟! خطتي كانت التسكع في المدينة وتبادل الأحاديث مع الناس وتدوين الملاحظات، وحين أعود إلى ثلاجة هلسنكي سأحاول صياغة انطباعاتي في قالب معين. قصة أو مجرد يوميات ربما. البارات والمطاعم ومقاهي تدخين الماريغوانا هي الطريق الأقصر والأسهل لتبادل أطراف الحديث. وهذا ما قمت به. في الحقيقة لم أنجز الكثير. كان من السهل ملاحظة أن ليوواردن لم تعتد بعد على الغرباء، نظرات الزبائن والعاملين كانت تشي بذلك، ما إن تخترق ملامحي الشرق أوسطية معابد الطعام والكحول والماريغوانا، حتى تشتغل رادارات أهالي ليوواردن لتحديد هوية الغريب. لم تكن نظرات الريبة التي تُوجّه صوبي تزعجني. لقد تدربت منذ سنوات على العيش كغريب. بل أصبحتْ لدي طرق خاصة لتحويل (غربتي وغرابتي) إلى مشاهد مسرحية ساخرة. ماهي بناية دار الوزن هذه؟ أشعل سيجارة أخرى. أوكي، بما أنني الوحيد الذي يتصاعد الآن منه الدخان ويتجمد في التراس، سألجأ إلى الإله غوغل بدل محادثة الآخرين. كم تبدو اليوم المعرفة ضخمة ومخيفة ومدهشة في كون الإنترنت. لو وضعت هذه الكراسي الفارغة في الترّاس في حضن الإله غوغل لقدم لك أجوبته، كتبا عن تاريخ وأشكال ومضامين الكراسي. كراسي حرب وسلام. كراسي للضحك في فيديوهات وأفلام وصور. كراسي للانتحار. كراسي مرضى وكراسي موظفين. كراسي على شكل أشجار تنتظرها المصانع. كراسي قديمة أثرية وكراسي في متحف الفن. كراسي ليوواردن وكراسي بغداد. كراسي مدفونة من حضارات قديمة ميتة. كراسي السلطة وكراسي الفقراء. وإن واصلت البحث ستبدو في نهاية المطاف كحيوان قزم يهرول بين سيقان كراسي عملاقة. تبدو المعرفة التي جمعها الإنترنت ومازال يجمعها كل يوم تحولنا إلى كائنات مجهرية. لكن ألم تكن المعرفة البشرية في كل الازمان محيطات شاسعة أمام تأملات الإنسان الهش والحائر. أم أن المعرفة نفسها التي ينتجها البشر صارت أسرع بكثير من قدرتنا على مسايرتها. المعرفة تتضخم بينما يشح وقتنا نحن! لا وقت لدينا للجري في هذا الماراثون الصاخب والغرائبي. أدخل إلى ويكيبيديا، لحل بعض ألغاز دار الوزن. هو مبنى عام يتم فيه أو من خلاله وزن البضائع. وقد بنيت معظم هذه المباني قبل عام 1800، قبل إنشاء المعايير الدولية للأوزان. كما كانت الرقابة العامة لوزن البضائع مهمة جداً، تم تشغيلها من قبل السلطات المحلية التي كانت تستخدم أيضاً لفرض ضرائب على البضائع المنقولة عن طريق بيعها أو داخل المدينة. لذلك، كانت دور الوزن غالباً بالقرب من ساحة السوق أو وسط المدينة.

أدفع ثمن قهوتي وأواصل تجوالي. تبدو ليوواردن هادئة ولطيفة، ومكان جميل للعيش فيه بسلام بعيدًا عن صخب المدن الكبيرة. مع ذلك تفوح من المدينة رائحة كآبة المدن الاسكندنافية الصغيرة. مررت بمكتبة المدينة. التقطت صورًا في هاتفي لبرج أخمنا. ثم تسكعت في الأزقة الضيقة وسط المدينة. لطالما أحببت الأزقة الضيقة في المدن. يراودك إحساس بالطمأنينة والحميمية. الأزقة الضيقة توحي لك بأنك تسري في شرايين المدينة. كم من الوقت يا ترى أحتاج للوصول إلى دماغ ليوواردن! ألتقط المزيد من الصور لعلها تعينني فيما بعد لرسم مشهد كتابي ما. أشعر بالتعب فأعود أدراجي إلى حيث أقيم. استأجر لي منظمو الإقامة الأدبية غرفة صغيرة، مرتبة ومنسقة بشكل جميل. تقع الغرفة فوق شقة مالك البناية ومخبز المعجنات. طوال اليوم تفوح رائحة الكيك والمعجنات في كل أرجاء البيت. هناك مقهى ملحق بالمخبز تقام فيه ورش لصناعة الكعك والشوكولا، وتصنع أيضًا في المخبز طلبات خاصة للزبائن. إنه مكان لطيف ومشروع شخصي يحمل اسم صاحب المكان: توني. وهو شاب لطيف وهادئ، ولديه كلب اسمه جون لينون. لم يكن الكلب يغادر المساحة التي خصصت له. لم يكن ينزل من السلم حيث المخبز ولم يكن يصعد إلى حيث غرفتي. وكان عليّ المرور به وإلقاء التحية كلما صعدت السلم إلى غرفتي. أعطيه يدي ليشمها، ثم أداعب رقبته وأقول: آه كيف حالك جون لينون؟! ينظر إلي جون الكلب بحزن ويقول: تخيل!

خيم الظلام سريعا. أشعر بألم في قدمي من كثرة المشي. أنتبه لمطعم للوجبات السريعة اسمه شالوم. أكيد أولاد عمنا اليهود لديهم نفس أكلنا العربي. أدخل المطعم فأكتشف أن الذين يعملون جميعهم من

العرب. جزائري وزميله المصري شغلوا راداراتهم واكتشفوا حتى قبل أن أتفوه بكلمة أنني غريب ولست من ليواوردن. لا أدري إن كان كثير من الناس يعرف حقيقة أن العرب ما إن يلتقي بعضهم البعض حتى تفتح أبواب السياسة والجروح التاريخية، ويبدأ النحيب والبكاء!! تقيأ المصري والجزائري أمامي دفعة كبيرة من الشكوى والتذمر من حال العرب وما آلت إليه أمورهم، من دون حتى أن يعرفوا اسمي، ولِم أنا في ليواوردن. أخذت طعامي سفري وودّعت الاخوة العرب: شالوم! قلت، وهربت من كآبة الشكوى. لا أدري إن كان طعام شالوم جيدًا. قبل أيام أكلت فلافل أكثر من جيدة في مطعم اسمه موني. وتبادلت الحديث مع شابة لطيفة وجميلة تعمل هناك. أصولها من أذربيجان. استغربت هي من زيارتي ليوواردن ثم تضاعفت دهشتها بطريقة طفولية حين عرفت أنني كاتب. أعاني بشكل عام في حياتي من فوضى الطعام. تأتي أيام أعيش فيها فقط على النبيذ الأحمر والخبز والجبن. ثم فجأة تعتريني رغبة في عمل طبخات جديدة. أفتح اليوتيوب وأتعلم. ثم أذهب للتسوق. أطبخ وآكل مثل حوت. في ليوواردن أتناول فطوري المجاني في مخبز توني، أما وجبة الغداء غالبا ما ألتهمها في مطاعم السواح في وسط المدينة في شارع نيوويستغ. ومرات آخذ وجبة للمساء من مطاعم الوجبات السريعة، مع زجاجة نبيذ أحمر طبعًا.

لم أنتبه من قبل إلى مقهى تدخين الماريغوانا القريب من سكني. اسمه: "استرخِ". وهذا ما أحتاجه في آخر ليلة لي. لم أعتد كثيرًا على تدخين الماريغوانا، الكحول هو طريقتي في إغراق ذهني بالسموم ومحاولة التلاشي! الماريغوانا تقود ذهني إلى تقلبات سريعة: الاسترخاء ثم فوبيا، ثم الغوص عميقا في بئر العبث. مع دخان النبتة تتحول همومي وخبرتي في الحياة إلى مجرد أشياء لا قيمة لها، أو أشعر أن روحي كومة من أوراق شجرة خريفية بحاجة إلى ريح تكنسها لتضيع إلى الأبد.

أطلب وايت ويدو جاهزة. أجلس وأدخن. يأتي شاب ويشاركني الطاولة. يفتح اللابتوب ويبدأ بالطباعة. الشبه الكبير بين الشاب وبين "إيمينيم" في فيلم 8 أميال مثير حقًا. يسأل الشاب من دون أن يلتفت لي: هل عثرت على قصة؟!

عفوًا! هل تتحدث معي، أرد.

الشاب: أعرف أنك هنا من أجل الكتابة عن ليواوردن!

أنا: آه، حقا!

الشاب: صديقتي صحفية، هي من أخبرتني. يمكنني أن أعطيك قصة إن أردت.

أنا: آه، تقصد لديك قصة تحكيها لي، كلي آذان صاغية.

الشاب: لا أنا كاتب أيضا، ولدي قصص لا أحتاجها!

أنا: عفوًا، لا أفهم.

الشاب: دعك من الوايت ويدو، خذ جرب هذا؟

أسحبُ نفسًا من سيجارته وأعيدها إليه: أنت كاتب إذا، ماذا تكتب؟

الشاب: قصص قصيرة وقصائد، كل قصصي عن ليواوردن لكني لم أنشر ولا قصة واحدة. نشرت بعض القصائد فحسب.

أنا: أفهم ذلك إلى حد ما! ما لذي تقصده حين تقول يمكنك أن تعطيني قصة.

الشاب: الأمر بسيط. أنت تتحدث مع الآخرين وتدور في المدينة تبحث عما يلهمك. ماذا تعرف أنت عن ليواوردن؟

أنا: بصراحة، كل ما أعرفه أن ماتا هاري هي من ليواوردن، ولولاها لما سمعت عن المدينة.

الشاب: أعطيني إيميلك، وسأبعث لك مجموعة من القصص يمكنك أن تختار أي واحدة. لدي قصص كتبتها باللغة الإنكليزية. أمي أسترالية وأبي هولندي.

يلف الشاب سيجارة أخرى، بينما أريح أنا الوايت ويدو في منفضة السجائر، فتنطفئ.

أنا: في الحقيقة، أجد كلامك غريبا. أنت تقول لي أن آخذ إحدى قصصك عن ليواوردن.

الشاب: نعم يمكنك أن تعيد صياغتها بأسلوبك. أعتقد أنه لدي قصص جيدة لكن لا أملك الأسلوب.

أنا: هل أنت جاد حقًا؟

الشاب: أفهم دهشتك، ستقول إنها تعتبر سرقة أدبية. لكن لو لم أخبرك بأنني كاتب، وحكيت لك إحدى قصصي المكتوبة، لن يكون لديك مانع من إعادة كتابتها بطريقتك.

أنا: أنت مثير حقا!

الشاب: وأنت جدي أكثر من اللازم، أعطني إيميلك. عليّ الذهاب الآن. سأرسل لك ثلاث قصص بالإنكليزية الليلة.

أنا: لديك قلم؟

يفتح صفحة ورد في اللابتوب ويديره صوبي. إطبع إيميلي وأقول: إسمع، يمكنني أن أقرا قصصك. لا تنتظر مني راي نقدي حقيقي، أرائي عشوائية وأفتقرُ إلى الحكمة!

يغلق الشاب اللابتوب. يضعه في حقيبة الظهر. يمد يده لمصافحتي: لا تقلق، يمكنك الإفادة من قصصي، لن أتهمك بالسرقة، قل إنك سمعتها من مدمن ماريغوانا في مقهى "استرخ". باي!

أشعل سيجارة الوايت ويدو من جديد، وأبتسم لنفسي. ربما دخّن هذا الشاب كثيرًا. أفكر فيما قاله، ثم فجأة تقتحم المخاوف ذهني وأشعر بقلق كبير يحتشد في ذهني، فأغادر.

أعود إلى غرفتي. أفتح الباب الخارجي فتفوح رائحة المعجنات. أصعد السلم باتجاه غرفتي، فيهرول الكلب جون لينون ليستقبلني. هاي جون، أقول!

الكلب: تخيل!

أنا: ماذا أتخيل جون؟!

الكلب: هل حقا تحدثت مع شاب يشبه إيمينيم.

أنا: تخيل!

الكلب: ماذا أتخيل؟

أنا: أنك قتلت.

الكلب: نعم تخيل. لقد قتلت!

أخلع ملابسي وأنام عاريا. أفيق. أدخل أسفل الدوش محاولًا تجميع شظايا حلمي: كنت عاريًا أجلس في كهف. وكانت هناك نار. وكان الكلب جون لينون عند مدخل الكهف يعوي. كنت أكتب على جدار الكهف بطباشير ملونة: أنا أيضا قتلت.

قتلت في حروب صليبية قبل قرون، وقطع راسي بضربة واحدة من سيف فارس شجاع . لقد قُتلت غدًا بسيارة مفخخة في بغداد، قتلت وأنا في طريقي إلى السوق، سأشتري الرز والسمك، سيعثرون على رأسي قرب كيس السمك. قُتلت في كهف، في العصر الحجري، أراد أحدهم أن يأكل ولدي. مساءًا غرقت، قتلني البحر، بعد أن ودعت قريتي، جدتي من الصومال، وأبي من تنزانيا، سينقلب القارب، لن أصل إلى شواطئ اسبانيا أبدًا. قتلت في غزوة مسلمين لبلادي، قتلت برمح طويل وسط سهوب آسيا . قتلت في العام الماضي في يوم الاحتفال بعيد منتصف الصيف في غابة فنلندية، احترقت بحفرة النار التي كنا نلعب سكارى حولها. بالطوفان، شطبت بلدتي الصغيرة، وقبل أن يدخل جذع شجرة مكسور في صدري، شاهدت طفلي يهرس أسفل جدار. قتلت بجرعة هروين زائدة في أمستردام. سقطت قذيفة من طائرة، قتلنا جميعا في الخندق، طائرة من الحرب العالمية الثانية تبولت فوق رؤوسنا. قتلني تجار المخدرات في كولمبيا بالخطأ، كان يريدون قتل ابن عمي. احترقت في فرن نازي، رغم أنني كنت ميتا حين حملوني إلى الفرن. سيارة فتاة ثملة، صدمتني في الشارع، كانت السماء تمطر فوق باريس في ذلك اليوم. أخذوا دمي مقابل دم رجل آخر في قرية أفغانية. قتلت في حرب أهلية، قتلت في ثورة. قتلت وقتلت وسأقتل. قتلت في نشرة الأخبار، قتلت من أجل أن يُدوّن اسمي في كتب التاريخ، قتلت من أجل أن أضيع إلى الأبد في زحام المقبرة.. قتلت بسبب الطموح، قتلت من أجل إنسان آخر، قتلت بسبب الغباء، قتلت بسبب طيبتي، قتلت بسرطان الرئة، كنت أظن أن تدخين السجائر أفضل من الموت بدخان الوحدة. قتلت وأنا أدافع عن الشيطان، قتلت في صفوف جيش الملاك. قتلت بسبب، قتلت من دون سبب..

www.citybooks.eu